

تاريخ الوراقة المغربية

تأليف: الأستاذ محمد المنوني

الأستاذ الدكتور بكتري محمد فهد

عرض:

إن سوء توزيع الكتب بين أقطار الوطن العربي يجعل المتابعين للنشر من المختصين بالتراث أمراً صعباً، والمعرفة بما ينشر معدومة أو تكاد إلا ما ندر. ولولا العلاقات الشخصية أو السفر للاشتراك بندوة أو للتدريس في إحدى البلاد العربية لكان الأمر أكثر سوءاً، ولكن العلاقات الشخصية تجعل هناك تهادياً بالكتب الجديدة، سواء بين المؤلفين أو المعنيين. أما الاشتراك في ندوة فإن الوقت القصير المتاح يعد فرصة ثمينة للاطلاع على الجديد المعروض في واجهات المكتبات.

وكان المؤمل من نشرات التراث التي تصدرها بعض البلاد العربية، مثل (مؤسسة الماجد). وقبلها نشرة أخبار التراث التي كانت تصدر بالكويت أن تصل إلى أيدي المعنيين جميعاً في البلاد القريبة، ولكن هذا لم يحصل للأسف. ولهذا فما على المتتبع لأخبار التراث إلا تقلب المجلات المختلفة التي تصدر في البلاد العربية، والزيارات المتكررة للمكتبات التي تصل إليها هذه المجلات، لتكون لديه فكرة عما نشر أو قيد النشر من كتب التراث، أو من خلال النقد والتعريف بما ينشر.

فمن الجديد الذي أتحننا به الأستاذ المرحوم محمد المنوني كتاب [تاريخ الوراقة المغربية]^(١). والمؤلف هو العلامة محمد بن عبد الهادي (من مواليد مكناس سنة ١٩١٩م). باحث متخصص في تاريخ الحضارة المغربية وخبير في شؤون المكتبات، حاز على جائزة سنة ١٩٦٩، وجائزة الاستحقاق الكبرى سنة ١٩٨٨م. ومن إنجازاته تأليفه:

١ - كتاب العلوم والفنون في عصر الموحدين سنة ١٩٥٠.

٢ - تاريخ ركب الحاج المغربي سنة ١٩٥٣.

(١) محمد المنوني: تاريخ الوراقة المغربية، جامعة محمد الخامس، الرباط ١٩٩١.

- ٣ - كتاب ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين سنة ١٩٨٠.
 - ٤ - مظاهر يقظة المغرب الحديث (سفران) سنة ١٩٨٥.
 - ٥ - المصادر العربية لتاريخ المغرب (سفران) ١٩٨٣ - ١٩٨٩.
 - ٦ - منتخبات من نواذر المخطوطات بالخزانة الحسنية سنة ١٩٧٨.
 - ٧ - دليل محفوظات دار الكتب الناصرية بتمكروت سنة ١٩٨٥.
 - ٨ - فهرست المخطوطات العربية بالخزانة العامة بالرباط، ج ١، مطبوع على الآلة الكاتبة ١٩٨٣.
 - ٩ - له جملة مقالات تناهز ١٥٠ مقالة ذكرت ضمن مسرد بديل (المصادر العربية لتاريخ المغرب ج ٢، ص ٤٤٨ - ٤٥٧).
- ولجهوده الصادقة في خدمة التراث المغربي أصبح عضواً في عدة ندوات بالمغرب والجزائر وتونس والسعودية وباكستان وإنجلترا وإسبانيا.
- وهذا الكتاب [تاريخ الوراقة المغربية] محاولة للكشف عن أحد الجوانب اللامعة في تاريخ حضارة المغرب الأقصى، كما كان يسمى، أو المملكة المغربية كما هي اليوم، وهي تلك التي تتعلق بالوراقة نساخة وزخرفة وتسفيراً. وأن من زار المغرب يعرف كيف أن البلاد حافلة بالعز، لا سيما في دواخل البيوت، والفاسية على وجه الخصوص. فالزان (وهو الفسيفساء) يطن جدران البيت إلى ارتفاع قامة عن الأرض بأشكاله الجميلة التي تجعل من داخل البيت كأنه حديقة، ونقش السقوف بالجبس بأشكال مختلفة، كالخطوط والدوائر والمقرنصات، وتغطية السقوف بالقرميد.
- كما يتجلى الفن في جلايات النساء المطرزة بأنواع الخيوط، وإنك لتجد صناعاتها، والغلمان العاملين ببرم الخيوط لتهيئتها في أزقة فاس أو في مراکش، فضلاً عن صناعة الزرابي في المدن المغربية، والتعامل مع جلود البقر والغنم، وإخراج جلودها بعد أن تمر بأيدي الصانع المهرة تحفاً فنية. ولا ننسى في هذا المقام ذكر النحاسيين (الصفارية) وهم يتفنون في صناعة أنواع الأباريق والمباخر، وآلات الشاي ومعداته، ومن يحفرون الآيات الكريمة على صحنون النحاس، لتكون ألواحاً تعلق على الجدران فتزيدها جمالاً.
- أما مقابر الأولياء والصالحين ولا سيما مقبرة المرحوم الملك محمد الخامس بالرباط، فأيات الفن ناطقة بالخط والزخرفة والحفر على الخشب. وكذلك الخزانة الملكية الملحقة بالقصر الملكي.
- وكتاب [تاريخ الوراقة المغربية] مقسم وفق حقبة تاريخية بادئاً بالعصور الإسلامية الأولى، ثم المرابطية، والموحدية، والمرينية، والوطاسية، والسعدية، والعلوية حتى سنة ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٦ م.

وقد استعرض المؤلف بين يدي الكتاب تعاريف الوراقة عند بعض المؤلفين، حيث جعلها بعضهم قاصرة على صناعة الورق. مبعداً عنها صناعة النساخة والتفسير (التجليد). وجعلها بعضهم شاملة للانتساخ والتصحيح والتفسير وسائر شؤون الكتابة بما فيها صناعة الرق (صناعة الجلود) وإعداد الورق. وفريق ثالث خصها بالنساخة فقط.

وهكذا خضعت هذه التعريفات لمؤثرات محلية أو زمنية. أما جهود المؤلف في تتبع هؤلاء المشتغلين بالوراقة بمعانيها المختلفة من نساخة وزخرفة وتفسير، رجالاً ونساءً، فقد بلغوا ٦٠٠ اسم سواء عرفت هذه الأسماء، وكان لها ترجمة، أو وردت في أواخر ما انتسخوه فقط. كما أنها شملت المكثرين أو من اشتغلوا في قصور السلاطين والأمراء. ومن كان يعمل لحسابه ولا يعرف عنه شيئاً.

وقد حفل الكتاب باللوحات المختلفة الخطوط سواء (الكوفي، أو المبسوط، أو المجوهر، أو المشرقي المتمغرب، أو المسند «الزماني») والتي بلغ عددها ٣٣ لوحة منها التي كانت عناوين للكتب، أو صحائف منه، ومنها التي كانت لوحات زخرفية جدارية.

إن كتابة الكتب باليد ظلت في المغرب تمارس من قبل الوراقين، منذ دخول الإسلام وحتى سنة ١٣٧٣هـ/١٩٥٦م، كما ذكر المنوني، علماً بأن طبع الكتب بالمطبعة العربية بدأ سنة ١٥١٤م في المطبعة التي تأسست في روما، والتي أصدرت عدة كتب علمية، من جملتها الكافية لابن الحاجب، والقانون في الطب لابن سينا، وتحرير أصول الهندسة لإقليدس، فضلاً عن الكتب الكثيرة المتعلقة بالديانة المسيحية^(١). وفي لبنان عام ١٦١٠م لأغراض دينية مسيحية. ثم شهدت مدينة حلب عام ١٧٠٢م مطبعة عربية طبعت بعض الكتب الدينية المسيحية باللغتين العربية واليونانية.

ثم دخلت المطبعة إلى مصر من شهر أكتوبر من سنة ١٧٩٨م على يد الحملة الاستعمارية الفرنسية. وفي يوم ٣ كانون الول (ديسمبر) عام ١٨٢٨م صدرت أول صحيفة في القاهرة (الوقائع المصرية) بعد ١٥ عاماً من تولي محمد علي باشا حكم مصر^(٢).

أما المطبعة الحجرية فلم تصل إلى مدينة فاس حتى العصر العلوي الرابع، أي في عهد السلطان محمد الرابع ١٢٧٦هـ/١٨٥٩ - ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م، والتي عمل بها

(١) د. كاظم المقدادي: البحث عن حرية التعبير، (منشورات العالم العربي ١٩٨٤، ص ١٣.

(٢) محمد المنوني: ٢٣٢.

وراقون اضطلعوا بنسخ المؤلفات المنشورة بهذه المطبعة.

ورغم تطور الطباعة فإنه لم يؤثر على نشاط النساخة في المغرب، ومن الطريف أن عدداً من المهتمين بالقراءة يعدلون عن بعض هذه المطبوعات إلى قراءة المخطوط منها باليد. ومما يدل على هذا، إعادة كتابة بعض المطبوعات المصرية بنسخها بالخط المغربي، حتى أن بعض الوراقين آخر متسخاتهم يضيفون نقل الكلمة الختامية لمصحح المطبوع^(١).

ومن معلومات كتاب الوراق المغربية أن المغرب أخذ يستورد الورق من أوروبا (البندقية بإيطاليا) منذ أوائل القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، مما أدى إلى تساؤل الناس عن الوجه الشرعي في استعماله، فانبرى الفقيه ابن مرزوق الحفيد بتأليف رسالة يجيز فيها استعمال الورق، وأنه طاهر لا نجاسة فيه «تقدم الدليل الواضح المعلوم على جواز النسخ من كاغد الروم»^(٢).

ويبدو أن الاعتماد على الورق الأوربي أصبح كلياً في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي، وانقطع إنتاج الكاغد المحلي^(٣).

أما استعمال الرق للكتابة فإنه استمر في المغرب، فكتابة المصاحف الشريفة ظلت إلى زمن القلقشندي (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) أما كتابة الصكوك العقود فإنها استمرت إلى المائة الثالثة عشرة للهجرة/أي التاسعة عشرة للميلاد^(٤) وللمقارنة بمعلومات المنوني نذكر أن الكتابة في الرق في المشرق قد توقفت في القرن السادس الهجري. أما المخطوطات المكتوبة في الرق فقد قاومت عاديات الزمن، لهذا ما تزال موجودة في كثير من خزائن الكتب في بلدان الشرق والغرب باختلاف أحجامها وموضوعاتها، سواء كانت مكتوبة باليونانية أو اللاتينية أو العربية أو غيرها من اللغات^(٥).

وكتاب «تاريخ الوراق المغربية» قد بين المدن التي ظهر فيها الوراقون الذين مارسوا مهنة الوراق كمراكش ومكناس والرباط وسلا، فضلاً عن العاصمة العلمية للمغرب، مدينة فاس. وبذلك ربطها بسلسلة المدن الإسلامية، وللمقارنة أيضاً نذكر المدن الشرقية التي صنع فيها الكتاب، وما يتعلق بمهنة الوراق بدءاً من سمرقند فيما وراء النهر كأول مدينة عرفت صناعة الورق بعد تعلمه من الصين، ثم بغداد ومدن

(١) محمد المنوني: ٢٣٣.

(٢) محمد المنوني: ٥٧.

(٣) محمد المنوني: ٢٣٢.

(٤) محمد المنوني: ٥٨.

(٥) كوركيس عواد: ٤١٧ (الورق أو الكاغد)، مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد ٢٣.

الشام كحلب ودمشق وطبرية والقاهرة والقيروان، ومدن الأندلس كقرطبة ومالقة وشاطبة.

ولقد كان في كثير من هذه المدن أسواق أو حوانيت مخصصة للوراقة، ظلت تحمل اسم مهنتها رداً من الزمن، حتى اندثار حوانيت الوراقين. ففي بغداد كان للوراقين سوق بالجانب الغربي متصل بسوق الكرخ. وفي الجانب الشرقي سوق أخرى عند باب الطاق، ويكفي أن نذكر عنهما أن علمين من أعلام الوراقين ممن عمل فيهما (ابن النديم البغدادي صاحب كتاب الفهرست، وياقوت الحموي البغدادي صاحب معجم البلدان، ومعجم الأدباء) اللذين كان لهما فضل على العلم والعلماء عرباً ومسلمين ومستشرقين، بما رصداه من حركة التأليف والتعريب عند العرب والمسلمين^(١).

وكذلك الأمر بالنسبة لمدينة حلب، ودمشق التي كانت حوانيت الوراقين فيها جوار المدرسة المعظمية^(٢).

وفي الفسطاط بمصر كان على عهد الطولونيين والأخشيديين سوق عظيمة للوراقين، تعرض فيها الكتب للبيع، وأحياناً تدور من دكاكينها المناظرات. وقد ذكر ياقوت الحموي البغدادي أن في القاهرة على عهده زقاق القناديل، فيه سوق الكتب والدفاتر والطرائف^(٣). وفي زمن المقرئزي (٨٤٥هـ/١٤٤١م) كانت سوق الوراقين قائمة، فقد ذكر في كتابه (الخطط) خط خان الوراقة. وحدد موقعه ما بين حارة بهاء الدين وسويقة أمير الجيوش^(٤). ويبدو أن سوق الوراقين استمرت متصلة خلال العهود التالية، لهذا لقب الشيخ عبد الرحمن بن محمد الحميدي المتوفى سنة ١٠٧٠هـ/١٦٥٩م بشيخ الوراقين^(٥). وكذلك كان في قرطبة سوق للكتب، يحصل فيه ما يحصل في المدن الإسلامية الأخرى من بيع وشراء ونسخ. وكما قام في سوقي بغداد دلال (سمسار) لترويج الكتب ومساعدة الناس على معرفتها، كذلك حدث في قرطبة ما يشبه ذلك، وهذا ما لم نره في كتاب تاريخ الوراقة المغربية، حيث لم تسعف المؤلف محمد المنوني المصادر فيما يبدو، رغم خبرته بالمخطوطات والمكتبات، وقد عرض معلومات عن حوانيت الوراقين أو نشاط الدلالين (المنادين). ومن القصص

(١) د. بدري محمد فهد: الوراقة والوراقين في الحضارة الإسلامية.

(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ١: ٥٤٩، (دمشق، مطبعة الترقى ١٥١).

(٣) ياقوت الحموي البغدادي: معجم الأدباء ٢: ٧٨ (القاهرة ٢٣ - ٢٥).

(٤) المقرئزي: الخطط ٢: ٢٣، (مصر ١٢٧٠هـ).

(٥) الخفاجي: ربحانة الألباء ٢: ١١٤ - ١١٦، (الباب الحلي ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م).

الطريقة التي حصلت في سوق الوراقين بقرطبة، والتي تظهر اهتمام أهل قرطبة بالكتب أن رجلاً أقام بقرطبة مدة من الزمن ملازماً لسوق كتبها، يرقب جلب كتاب بعينه كان له به اعتناء، إلى أن وقع الكتاب فإذا به وقد كتب بخط مريح وتسفير جيد ففرح به، فلما حصل النداء أخذ يزيد في سعره ليحصل عليه، إلا أن أحد الراغبين في الكتاب كان يزيد أيضاً، فيضطر الأول لإبلاغ المنادي بالزيادة في ثمنه، فيذهب عنه المنادي ويأتيه ليلغنه أن هناك من زاد في السعر إلى أن بلغ سعره فوق حده (الذي يعتقده) فسأل المنادي أن يدلّه على الرجل الثاني الذي كان يزيده، فلما دله عليه، سأله عن سبب إلحاحه في المزايدة على الكتاب، فأجابه بأنه أقام خزانة كتب، وملاها كتباً ليتجمل بها بين أعيان قرطبة، وبقي بها موضع يسع هذا الكتاب، ولا سيما وأنه حسن الحظ مريح التجليد لهذا أراد شراءه بأي ثمن^(١).

ومن قبيل الشيء بالشيء يذكر، فقد شاهدنا دلال الكتب في قيصارية وسط مدينة النجف يمارس فيها دلال الكتب نفس عمل قرينه القرطبي، رغم مرور القرون بينهما.

ومن الأسواق التي ذكرها تاريخ الوراق المغربية زقاق الوراق في مدينة سبتة. كما كان في فاس موضع سمي باسم الوراقين بجامع القرويين. وهو الذي صار يحمل اسم (باب الأولياء). كما كان للوراقين دكاكين، وهم الذين يعملون في تزيين جلود الغزلان ونحوها حتى تكون صالحة للكتابة فيها^(٢).

ومما قدمه الأستاذ المنوني في تاريخ الوراق المغربية: أن في فاس وحدها بلغ عدد حوانيت الوراقين ٤٠٠ لإنتاج الورق أيام السلطان يعقوب المنصور وابنه محمد الناصر، وكان مركز هذه الصناعة في فاس يسمى بالكغادين عند حي باب الحمراء على مقربة من وادي الزيتون، وقد خربت هذه الحوانيت من جراء المجاعات والفتن التي اجتاحت المغرب أواخر هذا العهد^(٣).

وهكذا سد كتاب [تاريخ الوراق المغربية] ثغرة كانت موجودة في تاريخ الوراق العربية الإسلامية. أما ما قدمه من لوحات لأنواع الخطوط التي ابتدعها المغاربة أو طوروها وفق أذواقهم وفنهم ومغربوها، فهي تحف ستبقى موضع اعتزاز المعنيين بالتراث والحضارة العربية الإسلامية.

(١) المقرئ: نفع الطيب: ١: ٤٦٣، (تحقيق محي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٤٩ م).

(٢) محمد المنوني: ٣٤.

(٣) محمد المنوني: ٣٣.

نماذج من الأنواع الخمسة للخط المغربي

مكرونا كس في الكا
 عي استقام خط واحد وروبي او
 كاد فلامد ابن عمنا الشيخ مولاي
 احمد رحمه الله وكان ذا حظ
 حسن مروبي مستحسن وكان يعلمنا
 نظام الحروف واتسافها ويعرف
 النسب من الكنانة ويعرفها

الخط الكوفي المتمغرب

ثم صرنا أكتب في الكاغيد حتى استقام خطي وجاد،
 وتروني أو كاد، بلا زمت ابن عمنا الشيخ مولاي أحمد
 رحمه الله. وكان ذا حظ حسن، مروني مستحسن، وكان
 يعلمني انتظام الحروف واتسافها، ويفر لي النسبة من
 الكتابة ويعرفها.

الخط المبسوط

ثم صرنا أكتب في الكاغيد حتى استقام خطي وجاد، وتروني أو كاد،
 بلا زمت ابن عمنا الشيخ مولاي أحمد رحمه الله. وكان ذا حظ حسن،
 مروني مستحسن، وكان يعلمني انتظام الحروف واتسافها، ويفر لي النسبة
 من الكتابة ويعرفها.."

الخط المجوهر

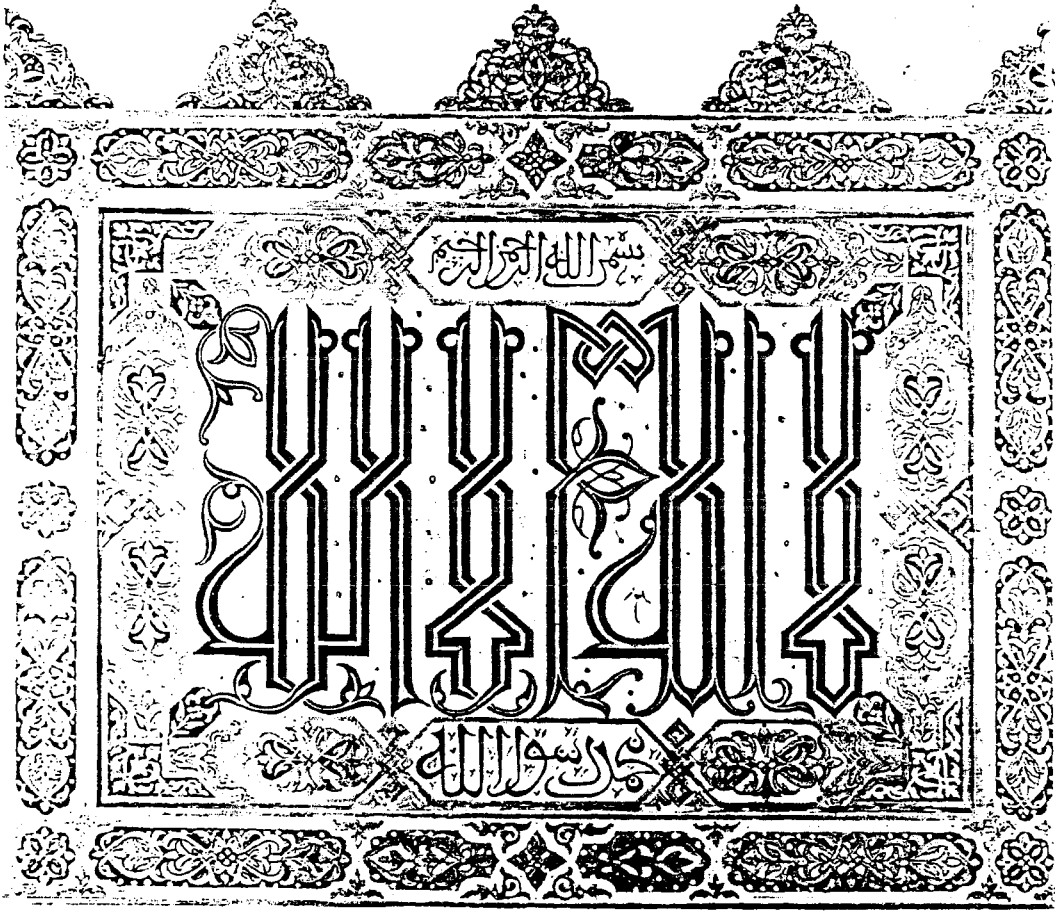
ثُمَّ صَرَّفْتُ الْكِتَابَ فِي الْكَافِغَةِ حَتَّى اسْتَفَانَهُ خَطِّي وَجَاءَ
وَتَرَوْنِي أَوْ كَأَنَّ، فَلَا زَمَنَ ابْنِ عَمِّهِ الشَّيْخِ مُوَلَّيَ أَحْمَدَ
رَحِمَهُ اللَّهُ. وَكَانَ مِنْ أَهْلِ حَمَّانَ، مُرَوَّنِي مُسْتَحْدَسَ،
فَكَانَ يَعْنِيهِ أَنْظَامُ الْحُرُوفِ وَالتَّهَافُوتِ، وَيُفَسِّرُ لِي
النَّسَبَ مِنَ الْكِتَابَةِ وَتَعْرِيفَهَا...

الخط المشرقي التمغربي

ثُمَّ صَرَّفْتُ الْكِتَابَ فِي الْكَافِغَةِ حَتَّى اسْتَفَانَهُ خَطِّي وَجَاءَ
وَتَرَوْنِي أَوْ كَأَنَّ، فَلَا زَمَنَ ابْنِ عَمِّهِ الشَّيْخِ مُوَلَّيَ أَحْمَدَ
رَحِمَهُ اللَّهُ. وَكَانَ مِنْ أَهْلِ حَمَّانَ، مُرَوَّنِي مُسْتَحْدَسَ،
فَكَانَ يَعْنِيهِ أَنْظَامُ الْحُرُوفِ وَالتَّهَافُوتِ، وَيُفَسِّرُ لِي
النَّسَبَ مِنَ الْكِتَابَةِ وَتَعْرِيفَهَا...

خط المسند - الزمامي

- النماذج الأربعة الأولى من عمل الخطاط محمد المعلمين، والخامس وهو المسند للخطاط عبد السلام الكنوني.
- الفقرة المكررة في النماذج الخمسة من مقدمة «حلية الكتاب ومنية الطلاب» لأحمد الرفاعي (ملحق بصفحة 221).



لوحة زخرفية جدارية من عمل عبد الكريم بن الطيب الوزاني.



خط الوراق أحمد بن الحسن زويتن الفاسي من صنف الميسوط الجيد، في الصفحة الأولى من المصحف الشريف المطبوع على الحجر بالقاهرة : في شهر شعبان 1347 هـ.